الفصل الرابع

العلم

الإسلام وأُمّيّة المسلمين

لا أريد التحدث هنا عن فريضة طلب العلم، ومدى ترغيب النصوص الدينية الإنسان لطلب العلم والانتداب إليه، وأن أذكر ما ورد حول هذا الموضوع من آيات القرآن وأحاديث أئمة الدين ووقائع التاريخ الإسلامي، ولا أريد الإعلام بفضل الإسلام، وتأييده العلم ودعوته الإنسان إلى التعلم.

ذلك لأن هذا الكلام تكرر كثيراً، لا أرى أثراً ولا فائدة تذكر لهذه الكلمات، فالمرء حين يفتح عينيه ويرى الشعوب الإسلامية في العصر الحاضر من أكثر الأمم جهلاً وأُمّية، وأن نسبة الأميّة في البلاد الإسلامية هي الأعلى في العالم، فإن هذه الكلمات الإعلامية تفقد تأثيرها، ويواجه الإنسان لغزاً واحداً على الأقل وهو أنه لو كان هذا الكلام صحيحاً وأن الإسلام يؤيد العلم إلى هذه الدرجة ويُعدُّه فرضاً وواجباً، فلماذا نجد المسلمين أبعد أُمم الأرض عن العلم؟

إنني أرى بدلاً عن الممارسات الإعلامية غير المؤثرة والتي لا تفيد في أفضل الحالات إلا طمأنة أنفسنا فقط، أن نركز على تحديد عيوب مجتمعاتنا الإسلامية، وأن نفكر في البحث عن عوامل هذا التخلف العلمي للمجتمع وأسبابه، والتوصل إلى الحلول الناجعة في هذا المجال[1].

فضيلة العلم أم العالِم؟

يبقي هذا السؤال لغزاً حقّاً: لِمَ تُركت هذه الفريضة العامة [أي طلب

(1) مطهري. ده گفتار [المقالات العشرة]، ص131-132.

العلم] ولم تُعدّ واجباً؟ ولِمَا لم تطبَّق هذه التعاليم؟ لا أريد بالطبع أن أقول إن هذه التعاليم لم تطبق في أيّ زمن، ذلك لأن الإسلام خلق في العالم حركة علمية وثقافية عظيمة منقطعة النظير، وكان لقرون عديدة يقود حركة العلم والثقافة والحضارة البشرية، وكانت هذه الحركة مدينة للأمر الذي أصدره الإسلام بشأن العلم [طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة].

وهل يمكن لهذا الدين أن لا يُوجِد حضارة وثقافة وحركة علمية، وهو الدين الذي تحدثت أولى الآيات التي نزلت على نبيّه عن القراءة والقلم والعلم والتعلم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، وهو الدين الذي لا يجيز التقليد والإتباع في أهم مبادئه -وهو التوحيد- بل يفرض البحث والتحقيق؟ ولكن في الوقت عينه عندما يلاحظ الإنسان تلك التعاليم والأوامر يجدها قد هُجرت وتُركت، خاصة خلال القرون الأخيرة، ولذلك كانت النتيجة ما نرى. إذن، يجب أن نعرف السبب في ذلك.

لا شك أن أحد أسباب هذا الأمر هو التطورات العكسية التي شهدتها الأوضاع الاجتماعية للمسلمين بسبب ممارسات أجهزة الخلافة أولاً ثم استمرت بين المسلمين، حيث تعمق الاختلاف والتمايز في حياة المسلمين، فأصبح المجتمع طبقيّاً، وهو أمر لا ينسجم مع هدف الإسلام، وانقسم المجتمع إلى طبقتين: إحداهما طبقة فقيرة وتعيسة لا تستطيع الحصول على لقمة العيش إلا بشق الأنفس، والأخرى طبقة مُسرِفة ومبذّرة ومغرورة لا تعرف كيف تنفق ثرواتها الهائلة. وعندما تسيطر الفواصل الطبقية على الأوضاع المعيشية العامة فإنه لا يبقى مجال لتطبيق هذه التعاليم والاهتمام والعمل بها، بل تظهر عقبات تمنع من تنفيذ هذه التعاليم.

ويذكر البعض سبباً آخر [للتخلف العلمي]... تقول هذه الفئة إن سبب عدم الاهتمام بالتعاليم الإسلامية في مجال العلم هو أن ما قاله الإسلام حول العلم وترغيب الناس في التعلم والدراسة وحول فضيلة العلم، تم تجيير كل ذلك لحساب العالِم والترغيب في احترامه وتقبيل يديه والتأكيد على فضيلة العالِم. فبدل أن يهتم الناس بطلب العلم وأن يصبحوا علماء ومتعلمين هم

وأبناؤهم في الحدود الممكنة، اتجه اهتمامهم نحو اكتساب الأجر والفضيلة من خلال احترام العلماء والخضوع لهم، فكانت النتيجة كما نرى.

وهذا الموضوع صحيح إلى حدٍّ مّا، ذلك لأنه رغم أن العلماء والباحثين الإسلاميين لم يكونوا السبب في وقوع هذا التحريف، إلا أن هذا المنطق كان هو السائد على الكتابات السطحية والساذجة التي كانت في متناول عامة الناس، وعلى المنابر والخطابات العادية، ولم تكن للناس أيّة علاقة بغير هذه الكتابات وهذه المنابر، فقد كانوا بعيدين عن البحوث العلمية والكتب العلمية المعتبرة.

وبالرغم من عدم وجود ما ذُكر من الانحراف في تعابير بعض علماء الإسلام، إلا أنه كان هناك نوع آخر من الجمود والانحراف أدى، نوعاً مّا، إلى الحدّ من تأثير التعاليم الإسلامية حول طلب العلم، وهو أن كل جماعة وطبقة وفئة من علماء الإسلام كانوا يقولون بإصرار إن العلم الذي يقصده الرسول ﷺ بكلامه وأنه «فريضة» على المسلمين هو العلم الموجود عندنا[2].

ماذا يعني مصطلح العلوم الدينية

لقد تعوّدنا على أن نسمي بعض العلوم، علوماً دينية، والبعض الآخر علوماً غير دينية. فالعلوم الدينية هي تلك العلوم التي ترتبط مباشرة بالقضايا العقائدية أو الأخلاقية أو العملية للدين، أو العلوم التي تُعدُّ مقدمة لدراسة المعارف أو الأحكام الدينية كعلوم اللغة العربية والمنطق.

وقد يتصوّر البعض أن العلوم الأخرى هي أجنبيّة عن الدين تماماً، وأن ما جاء في الإسلام حول فضيلة العلم وثواب وأجر التعلّم إنما ينحصر بما يُصطلح عليه اليوم بالعلوم الدينية، أو أن كلمة الرسول ﷺ التي تعتبر طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة تقصد هذه العلوم فقط.

وواقع الأمر أن هذا ليس أكثر من اصطلاح، فمن جهة كان مصطلح العلوم الدينية في العصر الإسلامي الأول يعني النصوص الدينية الأولى ولا غير، أيّ: القرآن الكريم، ونصوص سُنّة النبيّ أو أوصيائه. ففي العهد

(2) المصدر السابق، ص138-139.

الإسلامي الأول، وحين لم يكن الناس قد تعرّفوا بعد على الإسلام، كان الواجب على الجميع أن يتعلموا النصوص الدينية ويدرسوها قبل كل شيء. وفي تلك الفترة لم تكن العلوم المتداولة اليوم موجودة كعلم الكلام والفقه وأصول الفقه والمنطق والتاريخ. فالحديث المرويّ عن الرسول الأكرم ﷺ: «إنما العلم ثلاثة: آية مُحْكَمة، وفريضة عادلة، وسنّة قائمة»، إنما هو بالنظر إلى واجب المسلمين وظروفهم في تلك الأيام، ولكن بعد أن تعلّم المسلمون المتون الأساسية واعتبروها بمثابة الدستور الإسلامي للحياة، اتجهوا بحكم القرآن والرسول ﷺ نحو العلوم الأخرى باعتبار أن طلبها فريضة على المسلم، وتمّت تدريجياً كتابة العلوم وبلورتها، فلذلك ومن جهة أخرى فإن أيّ علم يفيد المسلمين، ويحل مشكلة من مشكلات الأمة يعتبر فريضة دينية وعلماً دينيّاً. فلماذا نعتبر علوم اللغة العربية كالنحو والصرف مثلاً علوماً دينية؟ أليس لأنها تنفع المسلمين بما يتفق مع الهدف الإسلامي! لماذا ندرس شعر امرئ القيس الغزلية وقصائد أبي نواس الخمرية ضمن تحصيل العلوم الدينية؟ أليس لكي تعيننا على فهم اللغة العربية وهي لغة القرآن؟

إذن، فكل علم يفيد الإسلام والمسلمين ويكون ضروريّاً لهم، ينبغي اعتباره علماً دينيّاً، ولو أخلص الطالب نيّته لله -عزّ وجلّ- وطلب ذلك العلم بهدف خدمة الإسلام والمسلمين، فإنه يكون مشمولاً بالأجر والثواب المذكور لطالب العلم، كالحديث الشريف: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم». ولو لم يخلص نيّته لله فإن طلب أيّ علم لا يكون له أجر وثواب حتى ولو كان تعلّم آيات القرآن الكريم.

إن تقسيم العلوم إلى علوم دينيّة وعلوم غير دينية ليس تقسيماً صحيحاً، إذ يؤدي إلى التصور بأن العلوم التي لا يُطلق عليها مصطلح العلوم الدينية هي أجنبيّة عن الإسلام، بينما شمولية الإسلام وختم الأديان به يقتضي أن نعتبر كل علم مفيد ونافع وضروريّ للمجتمع الإسلاميّ، علماً دينيّاً[3].

(3) المصدر السابق، ص145-147.